القصص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم عليه السّلام

أ. أناهير السميري

اللّقاء الحادي عشر

مدونة علم ينتفع به

www.tafaregdroos.blogspot.com

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكنّ سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصّالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

مقدّمة:

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهله وخاصّته، اللّهم آمين.

كنّا ولازلنا نتدراس في هذه السّيرة العطرة، سيرة إبراهيم عليه السّلام، الّذي قد قال فيه نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم: ((سَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ)) [1] إبراهيم عليه السّلام الّذي كُلَّمَا صلّينا وسلّمنا على رسولنا في التّحيّات، طلبنا من ربّنا أن يصلّي ويسلّم على رسولنا كما صلّى وسلّم على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

خبر إبراهيم عليه السّلام في سورة النّساء:

نتدارس اليوم خبر إبراهيم عليه السّلام في سورة النّساء، ونرى مرّة أخرى أنّ إبراهيم عليه السّلام يُذكر في سياقات تنبيه أهل الكتاب على صدق نبيّنا الكريم، وعلى وجوب اتّباع ملّة إبراهيم، **وقد ورد اسم إبراهيم عليه السّلام في سورة النّساء أربع مرّات في ثلاث آيات:**

١. في الآية ٥٤

٢. وفي الآية ١٢٥

٣. وفي الآية ١٦٣

مُدارسة الموطن الأوّل في سورة النّساء في الآية ٥٤:

سنبتدئ بمدارسة الموطن الأوّل في الآية ٥٤ ونحتاج لمدارسته أن نبدأ من أوّل السّياق في الآية ٤٩ حيث أنّ هذه الآية ليست أوّل السّياق تمامًا وإنّما أقرب سياق نبتدئ منه وهو: في الكلام والتّعجيب من بني إسرائيل.

نسمع الآيات من الآية ٤٩ وأتمنّى أن تكون مصاحفكم معكم من أجل المتابعة لأنّ السّياق فيه انتقالات كثيرة:

[1] مسند أحمد ابن حنبل _ مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ _ حَدِيثُ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ حديث رقم ١٦٨٩٣
(مرّ معنا باللّقاء الخامس ص٤، وباللّقاء التّاسع ص٥)

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)} [٢]

هذه الآيات كما هو مُتبيّن فيها تعجيب من حال بني إسرائيل {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} هذا تعجيب من تمادحهم بالتزكية؛ والتزكية إنّما تدلّ على أنّ الممدوح مُبرَّأٌ من القبيح فعلًا وقولًا، وهذا في الحقيقة خلاف ما هم عليه من الطّغيان والشّرك؛ والطّغيان والشّرك هذا أتى في السّياق السّابق مباشرة، يعني: الله عزّ وجلّ أخبر في الآيات السّابقة {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} وهذا كلّه حالهم، وأيضًا وقعوا في الشّرك {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} وبعد كلّ هذا الّذي قُصّ علينا من قبائحهم، فهم يقولون:{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} وسابقًا سمعنا في سورة البقرة أنّهم يقولون: {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [٦] فهم يزكّون أنفسهم، والآية موطن تعجّب من ادعائهم أنّهم أزكياء عند الله، مع ما هم عليه من الكفر والإثم العظيم {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} فهم يرون أنفسهم أنّهم مغفوري الذّنب وهذا الشّعور ــ والعياذ بالله ــ يكفي الإنسان لكي يطغى، ولهذا يجيب الله عزّ وجلّ عليهم {بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} التّزكية إنّما هي تزكية الله، التّزكية المعتدّ بها هي: من يزكّيه الله؛ فالله عزّ وجلّ هو العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسنٍ وقبح؛ والله عزّ وجلّ قد ذمّهم، وزكّى عباده المؤمنين: زكى إبراهيم، ومن معه، ومن سار على طريقه.

وبهذه المناسبة ــ وهذا مجرد استطراد ــ **الآية تدلّ على ذمّ التّمادح والتّزكية**، يعني: من المَعيب أن يزكّي الإنسان عمله، ويزكّي حاله، لكن لو أتينا مثلًا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتسمعينه قال: ((وَاللَّهِ ، إِنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ))

هل بهذه الطّريقة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يزكّي نفسه؟ عند

---

[٢] [النساء: ٤٩_٥٥]
[٣] [النساء: ٤٦]
[٤] [النساء: ٤٨]
[٥] [المائدة: ١٨]
[٦] [البقرة: ٨٠]
[٧] [البقرة: ١١١]
[٨] المعجم الكبير للطّبراني ــ بَابُ مَنِ اسْمُهُ إِبْرَاهِيمُ ــ الْفَضْلُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ ــ حديث رقم ٩٨٢وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته

هذا الكلام قاله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ردّا على ما اشترطه عليه اليهودي فالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم أَكْذَبَ الرّجل، ووصف نفسه بما وصفه به ربه، فالله الّذي شهد لنبيّه بالتّزكية؛ أمّا نحن لمّا نتكلّم في تزكية أنفسنا فهذا ما هو إلاّ من الكذب.

وهناك أحاديث كثيرة تمنع هذا السّلوك:

- ✓ في الحديث المتّفق عليه حكى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنّه سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رجلا يثني على رجل ويُطريه في المدح، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ((وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ)) وقد تكرّرت هذه الجملة من كلام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقولها له مرارًا: ((فَقَالَ : وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ مِرَارًا ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لاَ مَحَالَةَ ، فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلاَنًا ، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا ، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ)) [١]

- ✓ وقد روى مسلم عن المقداد رضي الله عنه أنّه قام بفعل، يعني: قام فعليًّا بما أمر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقد كان المقداد رضي الله عنه في مجلس وأتى رجل يمدح عثمان رضي الله عنه وهو أهل للمدح، لكن انظري ماذا فعل المقداد؟: ((فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا ، فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ)) يعني: وجه المادح ((فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ))

- ✓ وقد ذكر عن عمر رضي الله عنه أنّه قال: ((مَنْ قَالَ : أَنَا فِي الْجَنَّةِ ، فَهُوَ فِي النَّارِ))

- ✓ وقد كان من كلام عمر: ((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِرَأْيِهِ))

وعلى كلّ حال هذا كلّه استطراد لكن المقصود: أنّه لابدّ أن نعرف أنّ هذه أفكار المدح هي أصلًا آتية من اليهود، فلمّا تَجِدِي أنه قد انتشر في المجتمع دورات يمدح الإنسان فيها نفسه، ويتعلّم كيف يُثني على نفسه؟ وكيف يصبّ الثّقة في نفسه؟ فلابدّ أن تعرف أنّ هذا الكلام ما أتى إلاّ من اليهود، هذا هو دَيْدَنُهُمْ، وهذا كلامهم، وهذا أسلوبهم: أنّهم يمدحوا أنفسهم، ويُغطّون عيوبهم بذلك.

---

[٩] عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قُسَيْطٍ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: أَضَافَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَيْفًا، فَلَمْ يَلْقَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُصْلِحُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَسْلِفْنِي دَقِيقًا إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ» قَالَ: لَا إِلَّا بِرَهْنٍ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «أَمَ وَاللهِ، إِنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ أَسْلَفَنِي، أَوْ بَاعَنِي لَأَدَّيْتُ إِلَيْهِ» فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ} [طه: ١٣١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ يُعَزِّيهِ عَنِ الدُّنْيَا

[١] صحيح البخاري _ كتاب الشهادات _ باب: إذا زكى رجل رجلا كفاه _ حديث رقم ٢٥٤٧

[١] صحيح مسلم _ كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ _ بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَدْحِ ، إِذَا كَانَ فِيهِ إِفْرَاطٌ وَخِيفَ مِنْهُ _ حديث رقم ٥٤٥٧

[١] المطالب العالية للحافظ بن حجر _ كِتَابُ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ _ بَابُ كَرَاهِيَةَ التَّزْكِيَةِ _ حديث رقم ٣٠٧٩

[١] المطالب العالية للحافظ بن حجر _ كِتَابُ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ _ بَابُ كَرَاهِيَةَ التَّزْكِيَةِ _ حديث رقم ٣٠٧٩

✓ والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لنا: ((إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ))[1]

على كلّ حال الله عزّ وجلّ قال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} يعني سيعاقبون بفعلة المدح، ولا يُظلمون في ذلك العقاب فتيلًا، والفتيل كما هو معلوم: الخيط الموجود في شقّ النّواة؛ معنى ذلك: أنّه لو قدّرناها {وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} في عقوبتهم، لأنّهم قد فعلوا ما لا يرضاه الله، فهم لا يُظلمون فتيلًا في هذا الشّأن، يعني: في شأن كونهم زكّوا أنفسهم، فسيعاقبون على تلك التّزكية حقّ جزائهم من غير ظُلم.

ثمّ يقول الله عزّ وجلّ: {انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} هذا أيضًا تعجيب للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من فريتهم على الله وهي: تزكيتهم أنفسهم، وافترائهم بالكلام الّذي مرّ معنا: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} و{قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} وكانوا يقولون: (ما عملناه بالنّهار يُكَفَّرُ عنّا باللّيل) فيقول الله عزّ وجلّ: {وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا} يعني: كفى به في التّعظيم أنّه إثم مبين، يعني: هذا يكفي في تعظيم سَوْءَتِهِ أنّه {إِثْمًا مُبِينًا}

فإنّ افتراءهم على الله، مع مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العِظام، سيكون {إِثْمًا مُبِينًا} يعني: لو قارنّا افترائهم على الله ومدحهم أنفسهم مع بقية الآثام، فعلى ذلك استحقّوا أشدّ العقوبة.

وليس هذا فقط وَإنّما فِعلهم أيضًا، فقد حكى الله عزّ وجلّ عنهم نوعًا آخر من المكر، يعني: من مكرهم أنّهم يمدحون أنفسهم، ومن مكرهم أنّهم كانوا يفضّلون عبادة الأصنام على المؤمنين، وهذا الموقف كان منهم تَعَصُّبًا وَعِنَادًا.

فربّنا يقول لنا {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا} وهذه الآية فيما يُذكر أنّ لها سبب نزول:

(رُوِيَ أنّ حُيَيْ بن أخطب وكعب بن الأشراف اليهوديين خرجا إلى مكّة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشًا على محاربة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمّد منكم إلينا فلا نأمن مكركم) يعني: هذا كلام قريش؛ ففيما يُرْوَى أنّهم طلبوا أن يُسجد لآلهتهم حتى تطمئن قلوبهم، ففعلوا ذلك، فقال الله عزّ وجلّ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} ثمّ بعد ذلك سألهم أبو سفيان: (أنحن أهدى سبيلًا أم محمد؟ فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن عبادة الأصنام وترك دين آبائه) ثمّ يقول: (وأوقع الفرقة. قال: ومادينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت نسقي الحاجّ ونقري الضّيف ونفكّ العاني) فساووا بين الإيمان وبين هذه الأعمال! كما اليوم يأتون يساوون بين الإيمان وبين الأعمال الخيريّة! والمساعدات! ويجعلون هذا مثل هذا! فيأتوا هؤلاء الكفّار فيقولون: (أنتم أهدى سبيلًا)[1] {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ

---

[1] مسند أحمد ابن حنبل _ مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ _ حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ _ حديث رقم ١٦٥٩٧ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته

[1] تفسير الرّازي _ ج ١٠ _ تفسير الآية ٥١ سورة النساء صفحة ١٣٢.

آمَنُوا سَبِيلًا} _ سبحان الله _ وهذا متكرّر في كلّ زمان، أنّ يأتي جُهّال ويروا بعض السّلوكيّات الخيّرة والّتي هي في أصلها كذب وليست صدقًا! يرون بعض السّلوكيات، فماذا يفعلون؟ يصدّقون بأنّها خيّرة! فيجعلون أهل الكفر خيرًا من أهل الإسلام!

هذا كلّه {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} يعني: عليهم اللّعن من الله بمعنى الخذلان والإبعاد، وطبعًا هذا ضدّ ما للمؤمنين من القُربى، والزّلفى؛ وبيّن سبحانه وتعالى بأنّ من يلعنه فلا ناصر له: {وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} وهذا أيضًا من فضائحهم.

يأتي الآن شيء من أوصافهم {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} يعني: أتى الخبر عنهم بأنّهم **أهل بخل**، بعد ما وصفوا بأنّهم **أهل جهل**؛ أهل جهل في كونهم اعتقدوا أنّ عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله! وطبعًا هنا يُقصد بالجهل الّذي تعمّدوه لكونهم تجاهلوا ما يعتقدون! ففي هذه الآية وصفهم الله بالبُخل، ووصفهم بالحسد _ كما سيتبين _ فالبُخل: هو ألاّ يدفع لأحد شيئًا ممّا آتاه الله من النّعمة. والحسد: هو أن يتمنّى بأن لا يُعطي الله غيره شيئًا من النّعم.

لهذا فالبخل والحسد يشتركان في أنّ صاحبه يريد منع النّعمة عن الغير؛ البخيل ماذا يفعل؟ يمنع نعمة نفسه عن غيره، أمّا الحاسد فقد تعدّى هذا بأن يريد أن يمنع نعمة الله عن عباده.

فالآن هناك مذمّتان خطيرتان في النّاس يقابلهما مدحان في النّاس:

- إذا كان الإنسان جاهلًا من جهة العلم، فَقُوَاهُ العلميّة ضعيفة: جاهل.
- وأيضًا قواه الأخلاقية ضعيفة بل ذميمة: بخيل وحاسد.

لن يكون في الدّنيا أسوأ من هذا الشّخص الّذي يجتمع فيه ضعف القُوى العلميّة، وضعف القُوى الأخلاقيّة؛ ضعف القُوى العلميّة معناه: أنّه إنسان جاهل. وأهمّ شيء في ضعف القُوى الأخلاقية: البُخل والحسد.

فالله عزّ وجلّ أخبرنا أنّهم جُهّال يتجاهلون ما آتاهم من الحقّ، ووصفهم أيضًا بالبُخل والحسد؛ وهناك علاقة بينهما طبعًا: **فالإنسان لمّا يصبح جاهلًا يصبح عُرضة أكثر لقُوّة البُخل والحسد،** لأنّ بذل المال سبب لطهارة النّفس ولحصول السّعادة في الآخرة، وحبسه سبب لحصول المال في يده، فالبخل لا يأتي إلاّ من جاهل، لأنّه سيدعوك للدّنيا ويمنعك من الآخرة؛ والجود بالعكس يدعوك للآخرة ويمنعك من الدّنيا.

فإذًا الّذي سيرجّح الآخرة على الدّنيا هو الّذي عنده علم، بينما الّذي سيرجّح الدّنيا على الآخرة لن يكون إلاّ الجاهل؛ وهذا مثله الحسد، فالحسد لا يأتي إلاّ من جهل الإنسان بالله؛ وحيث أنّ الله يوصل النّعم والإحسان إلى العبيد، فإنّ من كره ذلك يعني: ما عرف الله! ويعني: يتدخّل في شأن الله! ولذلك لمّا ذكر الله جهلهم، وتجاهلهم للعلم، أردفه بذكر بُخلهم، وحسدهم.

وكلّ هذا لمّا تسمعيه لابدّ أن تتصوّري أنّ إبراهيم عليه السّلام بخلافه، كما سيتبيّن في السّياق: لماذا إبراهيم عليه السّلام بخلافه؟ لأنّه ستأتي الآية تُخبر عن إبراهيم عليه السّلام وتقارن به، فقد قال الله عزّ وجلّ: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ} وهنا {أَمْ} منقطعة يعني: أولًا فإنّ الهمزة الّتي فيها هي للإنكار، يعني: يُنكر أن يكون لهم نصيب من المُلك، فكأنّه يُقال: ألهم نصيب وافرٌ من الملك؟ بحيث يكونوا أصحاب أموال وبساتين كالملوك، فلا يأتون النّاس مع ذلك نقيرًا؟ فيكون المعنى: إثبات أنّ لهم ملك، ولكنّهم رغم أنّ لهم مُلك إلاّ أنّهم بخلوا.

دعونا نُعيد الكلام حتّى يترتّب، لأنّه أدخلنا معنيين معًا:

هنا {أَمْ}:

- منقطعة غير متّصلة بما قبلها؛ لمّا انتهى الكلام الأوّل كأنّه قيل: بل لهم نصيب من الملك، يعني: هذا الاستفهام استفهام يفيد الإنكار، أي: ليس لهم شيء من الملك البتّة. هذا معنى.
- ويمكن أن يكون هناك معنى آخر: هو أنّ لهم نصيب من الملك ولكنّهم رغم أنّ لهم نصيب من المُلك إلاّ أنّهم يبخلون بأقل القليل.

والّذي يظهر أنّه القول الأوّل وهو: أنّه ليس لهم شيء من الملك أبدًا، ولو قُدِّر أنّ لهم الملك {فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} وكأنّ هذا مانع لحصول الملك لهم، وكأنّ الملك والبخل لا يجتمعان، لماذا؟ لأنّه إذا لم يكن هناك إحسان، فإنّه تبقى النّفرة الطبيعية عن الانقياد، وقد قيل: (بِالْبِرِّ يُستعبد الحُرُّ).

فإذًا حالتهم البُخل حتّى النّقير، هذا الّذي هو نقرة في ظهر النّواة، والّذي منه تنبت النّخلة، فإنّهم لا يعطوه من بخلهم، ولهذا قيل: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ} يعني: بعد ما وبّخهم الله بالبخل، وبّخهم بالحسد، وهما شرّ الرّذائل _ كما اتفقنا _ وبينهم تلازم وتجاذب.

هنا {يَحْسُدُونَ النَّاسَ} ومن إكمال الآية سيتبيّن أنّ الناس هم: النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وصحابته الكرام، فهم يحسدونه على هذه الفضيلة: النّبوّة، والكتاب، والرّشد، وازدياد العزّ، والنّصر، فكلّ يوم كان يزيد نصرهم، واليهود بالمُقابل كلّ يوم يقع

في قلوبهم غليان من الحسد حتّى أنّهم يحسدون المسلمين على آمين(التأمين) ويحسدون المسلمين على (يوم الجمعة) ويحسدون المسلمين على كلّ توفيق وفّقهم الله إيّاه وهذا من فضل الله يؤتيه من يشاء، ولذلك **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** فإنّ الفضل العظيم الّذي يُقال عنه فضل **إنّما هو ما تقوم به العبوديّة** فيقول الله عزّ وجلّ: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}** فهذا أمر مُسَلّم عندهم، وهذا حَسْمٌ لمادّة حَسَدِهِمْ، لأنّهم يرون أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا يستحق هذا الفضل! ويستبعدون ذلك!

فكأنّه يُقال: بل يستحقّه فقد وصل إليه بطريق الوراثة كابرًا عن كابرٍ، فالمعنى: أنّ حسدهم المذكور في غاية القبح والبطلان، لأنّ الله قد آتى من قبل آل إبراهيم، الّذين هم أسلاف محمد وأبناء أعمامه **{الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** وقد مرّ معنا الكلام عن ذكرهما وهو بمعني: النّبوة والدّين عمومًا **{وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}** لا يُقادَرُ قَدْرُهُ فكيف تستبعدون نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم؟ وتحسدونه على إتيانها؟

وعلى كلّ حال **فالحسد لا يمكن أن يكون إلاّ عند الفضيلة.**

فكلّما كانت فضيلة الإنسان أتمّ وأكمل ← كان حسد الحاسدين عليه أعظم.

ولا يوجد في الكون أعظم من النّبوّة، والله أعطى النّبوّة لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وأعطاه أيضًا أنّه في كلّ يوم تقوى دولته، وتعظم شوكته، ويكثر انتصاره، وأعوانه، وكانوا يَرَوْا النّاس في كلّ مكان مقبلين عليه؛ فلمّا كانت هذه النّعم الكثيرة سببًا للحسد، بيّن الله ما يدفعها: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}** فكأنّه يُقال: أنّ هذا قد حصل في إبراهيم وأبنائه، وقد جمع كثير من ذريّته النّبوّة والملك، فلم لا تتعجّبون من ذلك؟ ولا تحسدونهم؟ لماذا تتعجّبون من حال محمّد صلّى الله عليه وسلّم؟ ولِم تحسدونه؟

على كلّ حال نبيّنا مثل حال من سبقه من الأنبياء الّذين هم من ذرية إبراهيم عليه السّلام، فالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوافق إبراهيم وذرّيّته ــ وهو من ذرّيّته ــ في الدّين، ويوافقهم أيضًا في شأن الدّنيا والملك، والمقصود بالملك هنا كما هو معلوم: قوّة الدّولة، وعِظَم الشّوكة، وكثرة الأنصار والأتباع، فللّه الحمد على إغاضة الأعداء؛ وهذا يفسّر لنا بوضوح الخطط لتفكيك مجتمعنا، ولبثّ العداوات بيننا، ولجعل المسلمين يتشرذمون ويتحزّبون على مالم ينزّل الله به سلطانًا، فبدل ما يكونوا كلّهم حزب الله النّاصرين لدين الله، الّذين يحبّ بعضهم بعضًا، دخل بينهم من الشّرور ما الله به عليم، وهذا كلّه من فعل الحسدة الّذين يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله، وهم يعلمون أنّ هذا مشهور في إبراهيم، وفي ذرّيّته.

لكن الّذي لابدّ له أن يَعِي هذا الدّرس جيدًا هو المسلم الّذي يظنّ بهم خيرًا وهم ما هم إلاّ حسدة وعلى كلّ حال {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} فإذًا فليعلموا أنّ {اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} وكلّ الاستفزاز الّذي يفعلونه من أجل إذهاب ريح المسلمين، فإنّ الله يعطيهم من القوّة ما يشلّ تفكيرهم، ويشتّت جمعهم.

اللّهمّ مسّكنا بالكتاب، واجعلنا من ذريّة الأنبياء، المُتابعين لهم، المُتمسّكين بما أتى به نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، وبما أتى به الأنبياء، فإنّ نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم على الحنيفيّة السّمحاء، فمتابعته يعني: متابعة كلّ الأنبياء.

مُدارسة الموطن الثّاني في سورة النّساء في الآية ١٢٥:

ننتقل للموطن الثّاني في سورة النساء في الآية ١٢٥ وهذه الآية أيضًا سياقها يبتدئ من عند الكلام عن الشّرك، والكلام عن مُشَاقّةِ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، إلى أن يأتي الكلام حول متابعة الشّيطان، يعني: يبدأ السّياق تقريبًا من الآية ١١٥ إلى أن يأتي الكلام عن متابعة الشّيطان وعن توعّده للمؤمنين بالإضلال، فيقول الله عزّ وجلّ:

{وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} ٨ ١

فإذًا الكلام عن هذا الفريق الآن، ثمّ يأتي الكلام عن الفريق الثّاني، سنبدأ نسمع الآيات من الآية (١٢١) في الحكم على الفريق الّذي خسر خسرانًا مبينًا، ومن المؤكد أنّه ينتقل منه إلى الكلام عن الّذين آمنوا لأنّ القرآن مثاني:

{أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} ٩

سنرى كيف أتى الكلام عن إبراهيم عليه السّلام؟ خصوصًا ونحن قد علمنا أنّ السّياق في الخبر عمّن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} وَأنّ {اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} انتهى الكلام عن هؤلاء الّذين اتّبعوا الشّيطان الّذين {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}.

---

١ [الصف: ٨]

١ [الصف: ٨]

١ [النساء: ١١٩_١٢٠]

١ [النساء: ١٢١_١٢٥]

٢ [النساء: ١١٥]

ثمّ أتى الكلام عن {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} ما أعظم هذا الكلام العظيم لله عزّ وجلّ والّذي فيه بُشرى للمؤمنين، وفيه ذِكْرُ حال السّعداء، والأتقياء، وما لهم من الكرامة عند ربّ العالمين، وأتت أوصافهم {وَالَّذِينَ آمَنُوا} يعني: أنّه وقع في قلوبهم التّصديق اليقيني بكمال الله، وعظمته، واستحقاقه للألوهيّة، وظهر أثر هذا التّصديق اليقيني بعمل الصّالحات، فصدّقوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، بما أُمِرُوا به من الخيرات؛ ماذا سيفعل الله عزّ وجلّ؟ {سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا} يعني: من تحت غرفها ومساكنها {الْأَنْهَارُ} أنهار الخمر، وأنهار الماء، وأنهار اللّبن، وأنهار العسل، وليُبشّروا بأنّهم خالدين فيها، لا يموتون، ولا يخرجون سبحان الله أبدًا {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا} يعني: هذا الوعد واقع لا محالة، وكيف لا يكون وعد الله حقّ؟ {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} من أصدق من الله وعدًا وخبرًا؟ وهذا الاستفهام بمعنى النّفي أي: لا أحد أصدق من الله قيلًا.

ولذلك كان من كلام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ: ((أَصْدَقُ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))[٢] فأنتم تصوّروا المعنى أمام مواعيد الشّيطان: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ} وهنا الله عزّ وجلّ يقول: {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا} فلا بدّ من استحضار هذا في ذهننا ونحن نقرأ هذه الآيات: أنّ الله يُعارض المواعيد الشّيطانيّة الكاذبة لمن قارن الشّيطان، يعارضه بوعده الصّادق لأوليائه، ويأتي تأكيد عظيم، ترغيبًا في أن يُحصِّل العباد هذا الوعد، فما عليك سوى أن تؤمن وتعمل صالحًا.

تأتي الآيات بعدها بتأكيد آخر فيُقال: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا} ماذا سيحصل له؟ {يُجْزَ بِهِ} إذًا فالأمر ليس على شهوتكم وأمانيّكم أيّها المشركون أن تنفعكم أصنامكم، ولا بأمانيّ أهل الكتاب الّذين يقولون كما مرّ معنا: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} و{لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً}[٢] لا، فالسّنّة التي سيعامل الله بها عباده واضحة: فالّذي يعمل سوء يجز به من المشركين ومن أهل الكتاب {وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}.

وهذا شأن مهمّ جدًّا أنّ العباد يعلمون كيف سيعاملهم الله؟ فإذا ما يتناولون المحرّمات، ويقعون في الذّنوب فماذا يتوقّعون؟ لابدّ أنّ {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} وما يجد من يحميه أبدًا، فإنّه هنا في الدّنيا إذا عمل سوء فإنّه يهرب، يسافر، يختفي، يبحث عمّن ينصره، لكن هناك {وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} في مقابل هذا: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} وهذا معناه: أنّ من يعمل الصّالحات شرطه أن يكون مؤمنًا.

---

[٢] المعجم الكبير للطبراني _ مَنِ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ _ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ الْهُذَلِيُّ ، يُكْنَى أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ _ حديث رقم ٨٤٤٢

[٢] [البقرة: ٨٠]

والإيمان _ كما مرّ سابقًا وسيأتي لاحقًا _ إنّما هو عقيدة في القلب بها تصبح الأعمال صالحات، انظروا الآية السّابقة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} ومرّة أخرى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى} الشّرط: {وَهُوَ مُؤْمِنٌ}.

فإذا وقع الإيمان أصبحت الأعمال صالحات، وإمّا بدون الإيمان فلا تعتبر الأعمال صالحات {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} يعني: لا يُنقص من حسناتهم قدر نقير _ ونحن قد مرّ معنا _ الحسدة هناك اليهود {لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} والله عزّ وجلّ الجواد الكريم لا يظلم النّاس نقيرًا، وشتّان بين هذا وهذا، فمن المؤكد أنّ الظلم بتفاصيله منفيّ؛ إذًا هم سيوفون جزاء أعمالهم من غير نقصان.

إلى أن نصل الآن إلى الشّيء المهمّ الّذي بالنسبة لنا هو موضوع مناقشتنا لهذه الآيات:

بيَّنَ رَبُّنَا في الآية السّابقة أنّ الشّرط لحصول النّجاة والفوز بالجنّة، أن يكون الإنسان مؤمنًا، يعني لا تكون الأعمال صالحات إلاّ إذا كان الإنسان مؤمنًا؛ فتأتي هذه الآية تشرح ما هو الإيمان؟:

- **الشّأن الأوّل**: بيّنت أنّ الإيمان إنّما **هو الدّين الّذي صاحبه يسلم وجهه لله** {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} فإذًا **الإيمان هو الدّين المشتمل على إظهار كمال العبوديّة، والخضوع، والإنقياد لله تعالى؛ فصاحبه يُسْلِمُ وهو محسن**.
- **الشّأن الثّاني**: هو أنّ هذا **الدّين هو الّذي كان عليه إبراهيم** عليه السلام.

يعني هناك شرحين للدّين، والشّرحين متّصلين؛ ما هو الإيمان؟ نقصد الإيمان الّذي جاء في الآية السّابقة: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} فالإيمان هو الّذي يجعل الأعمال صالحات، ما هو هذا الإيمان؟ هذا الإيمان أتى في هذه الآية الكريمة: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}

هناك سببان للتّرغيب في دين الإسلام:

✓ السّبب الأول: معلوم أنّ الدّين _ دين الإسلام _ مبنيّ على أمرين هما: الاعتقاد والعمل:

- **فالاعتقاد**: أسلم وجهه لله، لأنّ الإسلام هو الانقياد والخضوع، والوجه أحسن أعضاء الإنسان؛ فالإنسان إذا عرف بقلبه ربّه، وأقرّ بعظمته، وجلاله، وباستحقاقه للعبوديّة، أسلم وجهه لله.

- **والعمل**: أتى في قوله تعالى {وَهُوَ مُحْسِنٌ} والإحسان فيه: فعل الحسنات وترك السّيّئات.

فسبحان الله كيف أنّ هذه الجملة المختصرة أتت بالدّين كلّه، واحتوت كلّ المقاصد {أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ} **أيضًا تفيد الحصر**، يعني: أسلم نفسه لله، وما أسلم لغير الله، وهذا تنبيه على أنّ كمال الإيمان لا يكون إلاّ بالتّوحيد وبتفويض الأمر لله وحده، وبإظهار التبرّؤ من الحول والقوّة، وبمنع الاستعانة الشّركيّة؛ فأهل الشرك كانوا يستعينون بالأصنام ويقولون هؤلاء شفعائنا، والدّهريين والطّبيعيين يستعينون بالأفلاك والكواكب، حتّى اليهود كانوا يقولون في دفع عقوبة الآخرة أنّهم من أولاد الأنبياء.

إذًا بهذا اتّفقنا على أنّ الإيمان هو إسلام الوجه لله، **يعني**: **العقيدة والإحسان** والمقصود به: {وَهُوَ مُحْسِنٌ} يعني: العمل.

- ✓ **السّبب الثّاني**: وننظر أيضًا في فضيلة هذا الإيمان فنرى أنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم إنّما دعا الخلق إلى دين إبراهيم عليه السّلام، فلقد اشتهر عند كلّ الخلق أنّ إبراهيم عليه السّلام ما كان يدعو إلاّ لله تعالى وكان متبرّئًا من الشّرك فلا يعبد الكواكب ولا يطيع الفلك ولا يسجد لصنم فهذا ممّا اشتهر عند النّاس كلّهم، ودعوة محمّد صلّى الله عليه وسلّم إنّما هي على دين إبراهيم؛ وأكثر ما يُظهر هذا هي: الأعمال المتعلّقة بالكعبة مثل الصّلاة إليه، والطّواف بها، والسّعي، والرّمي، والوقوف، والحلق؛ فكأنّه يُقال: أنّ من كان على دين محمد صلّى الله عليه وسلّم فهو على دين إبراهيم. ونحن نعيد ونؤكّد أن العرب كانوا ما يفتخرون بشيء كافتخارهم بانتسابهم إلى إبراهيم؛ واليهود والنّصارى من المؤكّد أنّهم كانوا يفتخرون بإبراهيم.

فكأنّه في النّهاية يُقال: إذا كان هذا عندكم مقبولًا فلابدّ أن يكون شرع محمد صلّى الله عليه وسلّم أيضًا مقبولًا.

إذًا هذا الجزء الأول من الخبر {وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} والحنيف كما هو معلوم: المائل ومعناه: أنّه مائل عن الأديان كلّها، مائل عن الباطل، مائل عن الشّرك، وهو بعيد تمامًا عن الشّرك، ومظاهره.

إبراهيم عليه السلام خليل الله:

ثمّ يأتي تقرير في الآية مهمّ جدًّا في وصف إبراهيم عليه السّلام {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} فإبراهيم عليه السّلام لمّا بلغ في علوّ الدّرجة في الدّين، اتّخذه الله خليلًا، فكان جديرًا بأن يُتّبع في طريقته في ديانته، وكأنّه يُقال: أنّ الله ما اتّخذه خليل إلاّ لأنّه كان حنيفًا {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} بسبب ما كان عليه من الحنيفيّة، فقد كان عالمًا بالشّرع، آتيًا بالتّكاليف، وكما مرّ معنا {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}[٢] فالله جعله إمامًا للخلق لأنّه أتمّ تلك الكلمات، فاتّخاذ الله إبراهيم خليلًا بسبب أنّه كان عاملًا بتلك الشّريعة.

---

[٢] [البقرة: ١٢٤]

فهذا يُنبّه على أنّ من عمل بهذا الشّرع لابدّ وأن يكون له في المحبّة نصيب من محبّة الله، وهذا يفيد طبعًا التّرغيب العظيم في الدّين، ولذا خلّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم العظيمة.

فإبراهيم عليه السّلام خليل الله والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خليل لله، فهذا كلّه رفع لمكانة إبراهيم عليه السّلام، ورفع لمكانة نبيّنا الّذي جاء على دينه؛ ومحبة الله عزّ وجلّ لخلقه شأن لا يستطيع أحد أن يصفه، فكيف بالخُلّةِ؟ فهو صَفِيٌّ خالص المحبّة، والله عزّ وجلّ فخّم شأنه، ونصّص على أنّه ممدوح، وكلّ هذا ترغيب في ملّة إبراهيم عليه السّلام وفي ملّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم؛ فكأنّه يُقال: من بلغ عند الله من الزُّلفى مبلغًا يسمّى فيه خليلًا، حقيق على من سمع هذا أن يتّبع طريقته، وأن يكون قدوته، وأن يمتد عنقه لرؤية ما كان يفعل، ولابدّ أن يكون أشرف ما يرمق نحوه أحداق الأمم أن يروا هذه الخلّة الّتي هي أرفع مقامات المحبّة كيف وصل لها؟ وما وصل لها إلاّ بكثرة طاعته لربّه، كما وصفه الله عزّ وجلّ {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}[٢] .

وقد ذكر علماء السّلف أنّه وفّى بقيامه بجميع ما أمر به، وفي كلّ مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن الله عزّ وجلّ، ولا أمر حقير، ولا كبير، ولا صغير، **والخُلّة في حقّ الله إنّما هي المحبّة اللاّئقة به سبحانه وتعالى**، ونحن بفضل الله نؤمن بأنّ الله يحبّ عباده المؤمنين، ويحبّه عباده المؤمنين.

من كلام ابن القيم في الخُلَّةِ:

وأنقل لكم من كلام ابن القيم في كتابه _ الجواب الكافي _ ما يقول فيه:

(الْخُلَّةُ وَهِيَ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَنِهَايَتَهَا، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِي الْقَلْبِ سَعَةٌ لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ، وَهِيَ مَنْصِبٌ لَا يَقْبَلُ الْمُشَارَكَةَ بِوَجْهٍ مَا، وَهَذَا الْمَنْصِبُ خَلَصَ لِخَلِيلَيْنِ –صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا–: إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ، كَمَا قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا ، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا))[٢] وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا ، لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ))[٢] وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: ((إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خِلٍّ مِنْ خِلِّهِ))[٢]) إلى أن قال: (وَأَمَّا مَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْمُخْطِئِينَ – أَنَّ الْمَحَبَّةَ أَكْمَلُ مِنَ الْخُلَّةِ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ، ومُحَمَّدًا حَبِيبُ اللهِ، فَمِنْ جَهْلِهِ. فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ عَامَّةٌ، والْخُلَّةُ خَاصَّةٌ، وَالْخُلَّةُ نِهَايَةُ الْمَحَبَّةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلاً، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيلٌ غَيْرُ رَبِّهِ مَعَ إِخْبَارِهِ بِمَحَبَّتِهِ لِعَائِشَةَ وَلِأَبِيهَا وَلِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَغَيْرِهِمْ[٢]) يعني: الخُلّة أعلى من درجة

---

[٢] [النجم: ٣٧]

[٢] صحيح مسلم _ كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ _ بَابُ النَّهْيِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ ، عَلَى الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِيهَا _ حديث رقم ٨٦٨

[٢] صحيح مسلم _ كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ _ بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ حديث رقم ٤٥٢٠

[٢] صحيح مسلم _ كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ _ بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ حديث رقم ٤٥٢١

[٢] صحيح البخاري _ كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم _ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذا خليلا» _ حديث رقم ٣٤٩٥

المحبّة (وَأَيْضًا فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ: {يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} وَ{يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} وَ{يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} وَ{يُحِبُّ[٩] الْمُتَّقِينَ} وَ{يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} وَخُلَّتُهُ خَاصَّةٌ بِالْخَلِيلَيْنِ.)[٤] عليهما الصّلاة والسّلام. هكذا انتهى كلام ابن القيّم.[٣]

ونعيد ونكرّر أنّ هذه الخُلَّةُ أعلى درجات المَحَبَّةِ، ومحبّة الله لعبيده على ما يليق بجلاله، وهذا كلّه مدحًا لإبراهيم عليه السّلام، وتصفية لطريقه ولنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، من أجل أن تتعلّم طريقهم فتسلكه، وتكون دائم التّفكير:

- ✓ ماذا كان سيفعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لو كان في هذا الموقف؟
- ✓ دلّني يا ربّ ما هو الّذي يرضيك وأُوافق فيه سُنَّةَ نبيّك الكريم صلّى الله عليه وسلّم؟

أظنّ أنّ الأمر يحتاج إلى مناقشة أكثر في كون أنّ إبراهيم _ خليل الله _ لكن هذا مُجمل ما تيسّر، وإن سهّل الله غدًا العودة لهذا الكلام، عُدنا بأمر الله، وتناقشنا، وانتفعنا.

ربّنا يبارك لنا في أوقاتنا، وأعمالنا، وأعمارنا، ويتقبّلها منّا، ويعيننا على الصّيام والقيام، اللّهم آمين.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

[٢] [البقرة: ٢٢٢]
[٣] [آل عمران: ١٤٦]
[٣] [البقرة: ١٩٥]
[٣] [آل عمران: ٧٦]
[٣] [المائدة: ٤٢]
[٣] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي _ ابن القيّم _ (ط. مجمع الفقه) صفحة ٤٤٤